



أبقى الباب مفتوحاً

تسلماً بعضها إلى بعض إنه نقطة البدء. ذلك السيل العارم الذي يبدو موضوعاً واقعياً ممكناً. والذي تنشأ عنه كل تلك الأحداث المتشعبة اللاواقعية. ولكن في هذا الحدث الفجائي على وجه التحديد تكمن الرؤية الهيمية على الرواية والموجهة لها. إنها فكرة القدر الذي يهيمن على حياتنا ووجودنا. وكان حياة كل منا في مجملها إنما هي أشبه برحلة طويلة تترتب سائر أحداثها على لحظة قدرية لم نضرها ولم نتوقعها. فنبدو وكأننا نسير في حياتنا مأخوذين ومدفوعين بما أودته الأقدار لنا. هذه الرؤية الهيمية على العمل متناثرة في ثنائيات صراخ حياً، وتلميحات حياً آخر. فمذمومة حينما جرفه السيل إلى النهر، وأندفع به الماء إلى حيث لا يدري. أندفاع معنى القدر الذي يوجه رحلتنا وسائرنا في الحياة.

كنت تحب السفر والترحال. هذا هو جيك قد حظ بين يديك. وحملك حملاً. وأطلقك بين أجنحة. وبعد أن كنت سائراً في أعماق النوم، أدت الآن بلا أجنحة تسابق الريح، وكان خادم الخاتم هو الماء الذي يطير بك بسرعة أسطورية إلى حيث لا تعلم فكر كما تشاء. كذلك أبدأ أن نستطيع أن نقبض على النهاية. حديق في الأفق كما تشاء. واستسلم لظفره لأنك لا تملك القدرة على الإمساك بمقدور المياه، ولا تلك أن تحصيل الإحسان إيجاباً. أنت الآن لا ترى بعينيك وإنما يعينونك النهر الذي يواصل اقتدار جريته تعاطي الاحترار نحو الهاوية (ص ١٢).

وحتى عندما يمضي نادر في رحلته التي رسم القدر مسارها، ويصبح حكم البلاد التي بلغها طوع يدبه بعد أن كان أقرب إلى الموت غرقاً في النهر، تظل فكرة القدر حاضرة شاح على ذهنه. ولهذا تراه يتسائل بينه وبين نفسه عن السر في أن شخصاً يمكن أن ينتقل من الموت إلى المجد، أو من الضياع إلى الملك. (ص ٧٦).

وبذلك يمكن القول إن فكرة القدر المظلمة بنزعة إيمانية عميقة مستقرة هي ما يسود هذا العمل، وإن كان بشكل خفي إيماني، وهذا هو ما يضيء عليه كثافته وعنفه الوجودي.

الكتاب: أبقى الباب مفتوحاً
المؤلف: فؤاد قنديل

هذا العمل: عبارة قالها نادر لعروسه التي لم يفلح في الدخول بها، فبات في صقيع الليل خارج غنية الدار ثلاث ليالٍ بناء على تعليمات أحد شيوخ البلدة العاملين بالسحر، والذي اقترح هذه الوصفة السحرية لفك هذه العقدة الجنسية التي لا مبرر لها. فما كان من نادر إلا أن طلب من عروسه أن تملأ الباب مفتوحاً لعل حاله تنفج، فيهرب من صقيع الليل إلى دفء الفراش والجماع. عبارة عابرة قالها نادر في سياق حدث غير معقول يرد في بداية صفحات الرواية، ولكنها تبقى بمثابة نقطة تحول مركزية تترتب عليها أحداث جسام لم تكن في الحسبان.

أبقى الباب مفتوحاً:

ألعاب الحياة والقدر!

د. سعيد توفيق

النهر اشتاقت السماء إلى البحر فاستقلت أشواقها ماء فوق الجبال وأوجت إليها أن تركب النهر نحو البحر. أخفت السماء مشقتها في الظلمة. لم تكن تعلم أن أي شيء على الأرض يهفو للبحر ويمضي إليه. حتى الأسماك الجميلة. ومن لا يسلم نفسه للبحر تقطعه الأقدار إليه. (ص ٨).

غير أن ما يميز أسلوب الحكى هنا - بخلاف اللغة - إنما هو الخيال الذي لا يتوقف أبداً. فنحن هنا لسنا بآراء كتابية واحدة، وإنما بآراء سلسلة من الحكايات الخيالية التي تسلم كل منها إلى الأخرى. يذكرني هذا بأسلوب الحكى في ألف ليلة وليلة حيث تسلمنا الحكايات إلى بعضها دون توقف أو انقطاع. وهذه الرواية بوجه خاص لا تشبه أسلوب الحكى في ألف ليلة وليلة فقط من حيث بناء السرد، وإنما أيضاً من حيث روح مضمونه. إذ أن الموضوعات والشخصيات المصورة في هذه الرواية يغلب عليها الطابع الأسطوري السحري، باعتبارها موضوعات وشخصيات آتت من عالم خفي خيالي. بلاد بعيدة لا تعرف كتبها تحديدًا، ولكنها تخيلها كما لو كانت بلاداً أفريقية تقع عند منابع النيل في زمان غير زماننا هذا. لذلك نجد الناس هنا متخلفين في هيتهم ولونهم وأسمائهم ولغتهم (التي دقق قنديل في تصويرها)، بل في ثقافتهم وأسلوب حياتهم الذي يقوم على السحر والغيب. ولذلك فإنه عندما يختبئ بتلك البلاد بموعنة تلك الفتاة التي أوتها وأحبته، يدرك سحرها وكهنتها أن هناك غريباً بينهم. ولهذا فإن مبنوت كبير السحرة الذي يقرأ الأسرار أمر بما يلي: "أمر بجمع عشرة من أعصان شجر السور وقدر به ماء بحر، وتشعل تحته النار، وفنه تده"

"أبقى الباب مفتوحاً" هو عنوان رواية فؤاد قنديل الصادرة عن دار الهلال، وربما يبدو هذا العنوان، بالنسبة للمتلقى، غير دال أو موحٍ للوهلة الأولى. ولكن المرء إذا ماتمعن في هذا العنوان البسيط (الذي كثيراً ما نستخدمه في لغة الحياة اليومية)، لأدرك أن هذا العنوان في دلالته غير المباشرة يوحي بأن الباب يجب أن يبقى مفتوحاً؛ لأن من خرج منه سوف يعود؛ هذا المعنى سوف يتأكد لدى القارئ كلما واصل قراءة العمل حتى منتهاه. والحقيقة أن هذا العنوان ليس سوى عبارة عابرة جاءت على لسان الشخصية الرئيسية في

قصيدنا يخط نادر في نوم عميق تزعجر السماء وتبرق وتزعد، ثم تسيل وتفيض، فيندفع السيل المنحدر من الجبل على البلدة التي ترقد تحت سفحه، حاملاً نادر بالمرتبة الأسفنجية التي ينام عليها وبالطانية التي يلتحف بها، والمرسوم عليها نمر يكشر عن أنيابه، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً إزاء هذا السيل العارم الذي أفضى بالمرتبة إلى النهر الواسع، ومنه إلى ما شاء الله. ومن هنا تبدأ الحكاية أو سلسلة الحكايات التي لا تنتهي إلا بالعودة إلى الدار التي طلب نادر من زوجته سهاد أن تبقى بابها مفتوحة.

يجرف النهر نادر إلى بلاد بعيدة غريبة مليئة بالسحر والأساطير، لا تعرف كتبها، ولكن يتولد في أنفسنا شعور بانها بلاد أفريقية واقعة عند منابع النهر العظيم، في زمن لا نعرف وقته. تقع في مواء وتحيه بإخلاص فتاة من تلك البلدة متعطشة لحب حقيقي، في نفس الوقت الذي تقع في مواء ابنة عمها سلطانة البلاد التي تريد أن تتخذ زوجاً لها وأن يشاركها في حكم البلاد. ورغم هذا العرض الغرري، فإنه يترق للعودة إلى موطنه إلى زوجته وإلى داره الذي ترك بابها مفتوحاً، ولكنه لا يجد سبيلاً للخلاص من هذه الورطة سوى تلك الفتاة التي أحبته بجنون، وساعدته على الهروب من البلدة بصحبته. إذ كانت على استعداد لأن تصاحبه أيان ذهب. ولكنه فقدوا في النهر حينما زجر مرة أخرى أثناء عودته بصحبته إلى دياره.

كل هذا لا يهم، لا يهم في الرواية الحكاية أو الصدوة، وإنما ما يهم في المقام الأول أسلوب الحكى الذي يخلق الرواية. وأما لا أعني بأسلوب الحكى هنا لغة الأدب فحسب؛ لأن تلك اللغة مهما كانت أهميتها تظل أحد أساليب الحكى التي تميز الروائي، ولا شك أن لغة فؤاد قنديل لغة موحية قادرة على الوصف والتشخيص، وهو ما يمكن أن يلحظه القارئ على الفور من خلال كثير من المقاطع الموحية في الرواية، كما نجد ذلك على سبيل المثال حينما يصور نشأة السيل الذي أخذ نادر إلى

العاب الحياة والمدر

د. سعيد توفيق

النهر:

"اشتأقت السماء إلى البحر فأسقطت أشواقها ماء فوق الجبال، وأوحى إليها أن تتركب النهر نحو البحر، أخفت السماء عشقها في الظلمة.. لم تكن تعلم أن أى شيء على الأرض يهفو للبحر ويمضى إليه، حتى الأمنيات الجميلة.. ومن لا يسلم نفسه للبحر تقذفه الأقدار إليه.. (ص. ٨).

غير أن ما يميز أسلوب الحكى هنا- بخلاف اللغة- إنما هو الخيال الذى لا يتوقف أبداً: فنحن هنا لسنا بإزاء حكاية واحدة، وإنما بإزاء سلسلة من الحكايات الخيالية التى تسلم كل منها إلى الأخرى. يذكرنى هذا بأسلوب الحكى فى "ألف ليلة وليلة" حيث تسلمنا الحكايات إلى بعضها دون توقف أو انقطاع. وهذه الرواية بوجه خاص لا تشبه أسلوب الحكى فى "ألف ليلة وليلة" فقط من حيث بناء السرد، وإنما أيضاً من حيث روح مضمونه: إذ أن الموضوعات والشخص المصورة فى هذه الرواية يغلب عليها الطابع الأسطورى السحري، باعتبارها موضوعات وشخص أتت من عالم خفى خيالى.. بلاد بعيدة لا نعرف كنهها تحديداً، ولكننا نتخيلها كما لو كانت بلاداً أفريقية تقع عند منابع النيل فى زمان غير زماننا هذا. لذلك نجد الناس هنا مختلفين فى هيئتهم ولونهم وأسمائهم ولغتهم (التي دق قنديل فى تصويرها)، بل فى ثقافتهم وأسلوب حياتهم الذى يقوم على السحر والغيب. ولذلك فإنه عندما يختبئ بتلك البلاد بمعونة تلك الفتاة التى أوتته وأحبته، يدرك سحرها وكهنتها أن هناك غريباً بينهم؛ ولهذا فإن مينوت كبير السحرة الذى يقرأ الأسرار أمر بما يلي:

".. أمر بجمع عشرة من أغصان شجر السرو وقدر به ماء بحر، وتشعل تحته النار وفيه توضع

فبينما يغط نادر فى نوم عميق تزمجر السماء وتبرق وترعد، ثم تسيل وتفيض، فيندفع السيل المنحدر من الجبل على البلدة التى ترقد تحت سفحه، حاملاً نادر بالمرتبة الاسفنجية التى ينام عليها وبالبطانية التى يلتحف بها، والمرسوم عليها نمر يكشف عن أنيابه، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً إزاء هذا السيل العارم الذى أفضى بالمرتبة إلى النهر الواسع، ومنه إلى ما شاء الله. ومن هنا تبدأ الحكاية أو سلسلة الحكايات التى لا تنتهى إلا بالعودة إلى الدار التى طلب نادر من زوجه سهاد أن تبقى بابها مفتوحة.

يجرف النهر نادر إلى بلاد بعيدة غريبة مليئة بالسحر والأساطير، لا نعرف كنهها، ولكن يتولد فى أنفسنا شعور بأنها بلاد أفريقية واقعة عند منابع النهر العظيم، فى زمن لا نعرف وقته. تقع فى هواه وتحبه بإخلاص فتاة من تلك البلدة متعطشة لحب حقيقى، فى نفس الوقت الذى تقع فى هواه ابنة عمها سلطانة البلاد التى تريد أن تتخذه زوجاً لها وأن يشاركها فى حكم البلاد. ورغم هذا العرض المغرى، فإنه يتوق للعودة إلى موطنه: إلى زوجته وإلى داره الذى ترك بابها مفتوحاً، ولكنه لا يجد سبيلاً للخلاص من هذه الورطة سوى تلك الفتاة التى أحبه بجنون، وساعدته على الهروب من البلدة بصحبته؛ إذ كانت على استعداد لأن تصاحبه أياها ذهب. ولكنه فقداه فى النهر حينما زجر مرة أخرى أثناء عودته بصحبته إلى دياره.

كل هذا لا يهم! لا يهم فى الرواية الحكاية أو الحدود، وإنما ما يهم فى المقام الأول أسلوب الحكى الذى يخلق الرواية. وأنا لا أعنى بأسلوب الحكى هنا لغة الأديب فحسب؛ لأن تلك اللغة مهما كانت أهميتها تظل أحد أساليب الحكى التى تميز الروايات. ولا شك أن لغة فؤاد قنديل لغة موحية قادرة على الوصف والتشخيص، وهو ما يمكن أن يلحظه القارئ على الفور من خلال كثير من المقاطع الموحية فى الرواية، كما نجد ذلك على سبيل المثال حينما يصور نشأة السيل الذى أخذ نادر إلى

تسلمنا بعضها إلى السيل العارم الذى يب والذى تنشأ عنه كل اللاواقعية! ولكن فى هذا التحديد تكمن الرؤية لها! إنها فكرة القدر ووجودنا، وكان حياة أشبه برحلة طويلة تتر قدريه لم نخترها ولم فى حياتنا مأخوذتين لنا. هذه الرؤية المهي ثناياه صراحة حيناً، و حينما جرفه السيل حيث لا يدري، أدرك ومسارنا فى الحياة:

"كنت تحب الس حط بين يديك، وحملنا وبعد أن كنت سادراً أجحة تسابق الريح الذى يطير بك بسر: فكر كما تشاء، لكلك النهاية.. حلق فى الا لأنك لا تملك القدرة تملك أن تحيل الإ بعيونك وإنما بعيو جريمة تعاطى الانحد وحتى عندما ي القدر مسارها، ويص يديه بعد أن كان أة تظل فكرة القدر حا "يتساءل بينه وبين يمكن أن ينتقل من إلى الملك.. (ص. ٦) وبذلك يمكن ال إيمانية عميقة مسته كان بشكل خفى إو كثافته وعمقه الوجو

ضفدعتان وسبعة من أنياب تمساح شاب لم يبلغ بعد، وسبع ريشات من ببغاء أحمر وبيضة نسر أفريقى وبعض الأعشاب ولسان أفعى حية.. بعد الغلى لمدة ساعة ارتفعت أنياب التمساح وهبطت ريشات الببغاء، وقال مينوت: غريب فى البلاد قادم من مناطق بعيدة، لا يظهر القمر ولا الشمس عندهما وعندهم فى وقت واحد.. (ص. ٥٤).

والدهش هنا أن قنديل يصور لنا الأحداث المتعاقبة المتخيلة اللاواقعية والخرافية الأسطورية كما لو كانت أحداثاً واقعية جدية؛ لأنه يمزج دائماً عناصر واقعية بنسيج عمله الخيالى بشكل لا يخلو فى مواضع كثيرة من السخرية والدعابة، بحيث يبدو لنا عمله فى النهاية نوعاً من الفانتازيا المتقنة. وهذا المزج بين الواقعى والمتخيل، وبين الجاد والساخر، يتبدى لنا فى مواضع كثيرة، خاصة تلك التى يسيطر عليها نوع من الإسقاط السياسى، كما فى الحوارات العديدة التى تدور بينه وسلطانة البلاد التى تحاول إغرائه بالبقاء، ليس فقط بأسلحتها الأنثوية، وإنما بأن يشاركها الحكم سلطاناً على البلاد.

وفضلاً عن ذلك، فإن من أهم ما يميز أسلوب الحكى هنا هو التشويق فى سرد الحكايات التى لا تنقطع. ولا شك أن التشويق- فى حد ذاته- يُعتبر قيمة جمالية كما لاحظ ذلك وبينه بالتفصيل الفيلسوف الكبير رومان إنجاردن (الذى يعد من أهم الفلاسفة فى علم الجمال المعاصر). وربما تتبدى أهمية التشويق فى الأعمال السينمائية أكثر من غيرها، إلا أن هذه القيمة الجمالية تظل أيضاً أحد معايير جماليات الحكى الروائى. والتشويق هنا يعنى ببساطة أن أسلوب الحكى يجعلنا دائماً فى شوق لمعرفة ما ستفضى إليه الأحداث والحكايات المتلاحقة. ولقد نسج قنديل بعناية فائقة كل حكاية من حكاياته التى تسلمنا الواحدة منها إلى الأخرى دون أن نشعر بوجود انقطاع أو انتقال فجائى غير مبرر فى أى موضع من المواضع.

شئ واحد يبدو وكأنه قد انبثق فجأة دون تبرير، وعليه قامت سائر أحداث الرواية التى



أبقى الباب مفتوحاً

تسلمنا بعضها إلى بعض.. إنه نقطة البدء.. ذلك السيل العارم الذي يبدو موضوعاً واقعيّاً ممكناً، والذي تنشأ عنه كل تلك الأحداث المتخيلة اللاواقعية! ولكن في هذا الحدث الفجائي على وجه التحديد تكمن الرؤية المهيمنة على الرواية والموجهة لها! إنها فكرة القدر الذي يهيمن على حياتنا ووجودنا، وكان حياة كل منا في مجملها إنما هي أشبه برحلة طويلة تترتب سائر أحداثها على لحظة قدرية لم نخترها ولم نتوقعها، فنبدو وكأننا نسير في حياتنا مأخوذين ومدفوعين بما أرادته الأقدار لنا. هذه الرؤية المهيمنة على العمل متناثرة في ثناياه صراحة جليّة، وتلميحاتاً حيّاً آخر. فمنذ البدء، حينما جرفه السيل إلى النهر، واندفع به الماء إلى حيث لا يدري، أدرك معنى القدر الذي يوجه رحلتنا ومسارنا في الحياة:

"كنت تحب السفر والترحال. هذا هو حبك قد حط بين يديك، وحملك حملاً، وأطلقك دون أجنحة، وبعد أن كنت سادراً في أعماق النوم، أنت الآن بلا أجنحة تسابق الريح، وكأن خادماً الخاتم هو الماء الذي يطير بك بسرعة أسطورية إلى حيث لا تعلم.. فكر كما تشاء، لكنك أبداً لن تستطيع أن تقبض على النهاية.. حذق في الأفق كما تشاء، واستسلم لقدرك لأنك لا تملك القدرة على الإمساك بمقود المياه، ولا تملك أن تحيل الإقدام إدياراً. أنت الآن لا ترى بعيونك وإنما بعيون النهر الذي يواصل اقتفاف جريمة تعاطي الانحدار نحو الهاوية" (ص. ١٣).

وحتى عندما يمضي نادر في رحلته التي رسم القدر مسارها، ويصبح حكم البلاد التي بلغها طوع يديه بعد أن كان أقرب إلى الموت غرقاً في النهر، تظل فكرة القدر حاضرة تلح على ذهنه؛ ولهذا نراه: "يتساءل بينه وبين نفسه عن السر في أن شخصاً يمكن أن ينتقل من الموت إلى المجد، أو من الضياع إلى الملك.." (ص. ٧٦).

وبذلك يمكن القول إن فكرة القدر المغلفة بنزعة إيمانية عميقة مستترة هي ما يسود هذا العمل، وإن كان بشكل خفي إيحائي، وهذا هو ما يضيف عليه كثافته وعمقه الوجودي.

الكتاب: أبقى الباب مفتوحاً

المؤلف: فؤاد قنديل

الناشر: الهلال